عادات القرآن الكريم الأسلوبية في الإطناب
التذييل في الآيات القرآنية أنموذجا

بقلم
د. محمود علي عثمان عثمان (*)

ملخص

هدف البحث دراسة عادة من عادات القرآن تعكس إعجازه البياني في أسلوبه، وهو الإطناب من خلال التذييل في الآيات القرآنية، فجاء البحث يكشف عن ظاهرة تمكّنه الدّلالي في سياقه، وتناسب أجزائه وتماسك بنائه، ولتحقيق هذا الهدف فقد سلك الباحث المنهج الاستقرائي والاستنباطي والوصفي، بحيث يستقرئ التذييل القرآني ويصنّفه ضمن حالات أربع ومن ثَمّ استنباط أسراره البلاغية ومظاهر تمكّنه الدلالي في سياقه، ودوره في الكشف عن مقاصد القرآن وسوره.

وقد خلصت الدراسة إلى أن التذييل القرآني مرتبط تمام الارتباط بالآية ويتناسب مع الجملة السابقة عليه تناسبا راقيا يجعل السابق يمهد للّاحق واللاحق يؤكد على السابق في تناغم واتساق، لنخرج بذلك بنظرية قرآنية وهي التمكّن الدّلالي للتذييل القرآني في سياقه، وأن هذا التمكّن يرتبط بالعلاقات بين البنى المتوالية للسياق بأكمله على وفق: مناسبة دلالة جملة التذييل لسياقها وسياق السورة العام الذي استدعاها ولمقاصد القرآن العامة وسوره، وهذه العلاقات مجتمعة مكّنته دلاليا في سياقه، بحيث

(*) أستاذ مساعد بقسم الدراسات القرآنية، كلية التربية، جامعة الملك فيصل- المملكة العربية السعودية.
mahmoudaliothman726@gmail.com
تاريخ الإرسال: 2018/11/17 تاريخ القبول:2019/01/22

يؤدّي المعنى المراد بدقة ولا يغني غيرُه من جمل التذييل غناءَه؛ كما بيّنت الدراسة أن التذييل القرآني شكّل دلالات رمزية تؤدي بدورها وظيفتين، وظيفة مترجِمة وكاشفة عن مقاصد القرآن وسوره، ووظيفة انفعالية تستثير نفسية السامع وتستحوذ عليه، وأوصت الدراسة بمواصلة رصد ظاهرة التمكّن الدلالي للتذييل القرآني.

الكلمات المفتاحية:

الإطناب؛ التذييل القرآني؛ التمكّن الدّلالي؛ عادات القرآن؛ مقاصد القرآن وسوره.

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد نزل القرآن الكريم ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ (الشعراء: 195)، وخاطب العرب بأسلوبهم وطرائق تعبيرهم خطاب العارف الفَهِم لطرائقهم، وبلغ الغاية في جميع وجوهه ومنها الوجه اللغوي، فقد أُحكِم نظم القرآن واتّسقت وتماسكت ألفاظه وآياته وتناسبت أجزاؤه، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١)، ومن مظاهر اتّساق النصّ القرآني التذييل في آياته.

ولما كان القرآن الكريم غنيا بالإعجاز البلاغي البياني عامة وبأسلوب التذييل خاصة غنى يستوقف النظر، ويلفت البصر، وكان هذا اللون من ألوان البيان القرآني له مكانته في القرآن ولدى علماء البلاغة والأدب، فقد سعت هذه الدراسة إلى بيان مظاهر التمكّن والاتّساق الدلالي في جملة التذييل القرآني، وتماسك بنائها وتناسب أجزائها واتّساقها مع السياق الواردة فيه، ودلالتها على مقصد السورة ومقاصد القرآن العامة، ليكشف التذييل بذلك عن دوره في تحقيق سبك واتّساق النص القرآني، وعن كونه يمثّل أحد عناصر التمكّن الدلالي في النص القرآني، فالتذييل القرآني له قيمته في

فهم المعنى وإتمامه وتأكيده واختزاله وجمال بيانه وروعة تصويره، ولذا يأتي التذييل القرآني مستقرا في قراره، ولا يغني غيرُه غناءه في موضعه، فهو مطمئن في موضعه، غيرَ نافر ولا قلق.

وقد جاءت هذه الدراسة لكشف كنز من كنوز القرآن الكريم المتعلقة بإعجازه اللغوي والبياني، وإلى أسلوب من الأساليب المعجزة للتعبير القرآني وهي ظاهرة التمكن الدلالي للتذييل القرآني ودلالته على مقاصد القرآن وسوره، فلأهمية التذييل القرآني ودوره في انسجام واتّساق النص القرآني، فقد رغبت في تناول ظاهرة التمكن الدلالي للتذييل القرآني ودلالته على مقاصد القرآن وسوره، وذلك من خلال التعرّض إلى نماذج من التذييل القرآني ودراستها من وجهة بلاغية وسياقية، وقد بيّنت الصلة بين تذييلها وبين ما قبلها من الآية، وتبين أنه جاء مستقرا في مكانه، ولو استبدل به غيره لما تحقق الغرض المقصود من الآية ولما تمّ المعنى المراد منها.

ترتبط ظاهرةُ التمكّن الدلالي للتذييل القرآني بالعلاقات بين البُنى المتوالية للسياق بأكمله على وفق: مناسبة دلالة جملة التذييل لسياقها وسياق السورة العام الذي استدعاها ولمقصد السورة ومقاصد القرآن العامة، وهذه العلاقات مجتمعة مكّنتها دلاليا في سياقها، وقد اعتبر علماء الإعجاز استعمال القرآن الكريم لأفصح الألفاظ بأحسن المواقع متضمّنة أسلم المعاني وأعلى الوجوه دلالة من مخائل إعجاز القرآن، حتى أوضح الخطّابي هذا العلم بقوله: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأَنه جاء بأَفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّنا أصح المعاني"[1].

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي:

ما الأسرار البلاغية لجملة التذييل القرآني ومظاهر تمكّنها الدلالي في سياقها، وما

أثرها في الكشف عن مقاصد القرآن وسوره؟

أسئلة البحث:

يمكن معالجة مشكلة الدراسة الحالية من خلال الإجابة على السؤال الرئيس الآتي: ما الأسرار البلاغية لجملة التذييل القرآني ومظاهر تمكّنها الدلالي في سياقها، وما أثرها في الكشف عن مقاصد القرآن وسوره؟

ويتفرّع منه السؤالين الآتيين:

– ما النكات البلاغية التي يمكن الكشف عنها من خلال التعبير بالتذييل القرآني؟

– ما أثر التذييل القرآني في السياق الوارد فيه، وما مدى حاجة مقصد السورة والسياق القرآني إلى جملة التذييل القرآني، وهل يُغني غيرُها غناءها في سياقها؟

أهداف البحث:

تهدف الدراسة تحقيق الهدف الرئيس وهو بيان الأسرار البلاغية لجملة التذييل القرآني ومظاهر تمكّنها الدلالي في سياقها، والكشف عن دلالتها على مقاصد القرآن وسوره، وذلك لا يتمّ إلا بتحقيق الأهداف الفرعية الآتية:

– بيان المقصود بالتذييل القرآني، ومقصد السورة ومقاصد القرآن الكريم، وظاهرة التمكّن الدلالي.

– التعرّض إلى حالات التذييل القرآني من خلال عرض نماذج من التذييل القرآني ودراستها من وجهة بلاغية وسياقية ومقاصدية؛ لبيان سرّ ورودها في موضعها ومظاهر تمكّنها الدلالي في السياق الواردة فيه.

أهمية البحث:

وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من الاعتبارات الآتية:

أولا: الفوائد العلمية

– أهمية المجال والموضوع الذي تبحث فيه، وهو مجال القرآن الكريم الذي هو

أساس الدين، وهي دراسة في الإعجاز اللغوي والبياني والمقاصدي للتذييل القرآني، وقد تناولْتُ جملة التذييل القرآني من وجهة لغوية بيانية سياقية مقاصدية بفهم ومنهج جديد؛ مما دعا إلى ضرورة التعريف بهذا المنهج والفهم الجديد، ومعالجته معالجة علمية.

– حلّ المشكلة البحثية المتمثّلة ببيان الأسرار البلاغية لجملة التذييل القرآني ومظاهر تمكّنها الدلالي في سياقها، وبيان أثرها في الكشف عن مقاصد القرآن وسوره؟

– جِدّة الموضوع الذي تبحث فيه الدراسة، فقد قامت دراسات علمية تناولت موضوع التذييل القرآني، واستخراج الأسرار البلاغية فيها، ولكن لم أقف على دراسة علمية مستقلة محكّمة تناولت دلالة التذييل القرآني على مقاصد القرآن الكريم وسوره، مما استدعى وجود دراسة مستقلة وافية تتناول هذا الموضوع.

– الوقوف على سرّ اصطفاء جملة التذييل القرآني وتمكّنها الدلالي وأنّ ذلك يرجع إلى أنّ جملة التذييل القرآني قادرة على تأكيد المعنى واختزاله وتصويره بأروع تصوير وأجمل بيان، كما أنها قادرة على جذب القارئ وتمكينه من متابعة ورصد ما تتضمّنه جملة التذييل القرآني من إيحاءات ودلالات.

–الرد على الطاعنين من أعداء الإسلام الذين يقولون إن التذييل القرآني إنما جاء للجرس الصوتي فقط، نافين بذلك ظاهرة الاتّساق والتمكّن الدلالي في جملة التذييل القرآني؛ وصولا إلى هدفهم بأن نظم القرآن الكريم غير متّسق، وأن آياته غير متمكّنة من موضعها ولا يربطها سياق.

ثانيا: الفوائد التطبيقية

تسعى هذه الدراسة لفتح آفاق لتدبّر القرآن الكريم، فهي معنيّة بالكشف عن ظاهرة التمكّن الدلالي للتذييل القرآني، ولذا فالمجال البحثي مفتوح أمام الباحثين في الحقلين القرآني والبلاغي للوقوف على هذه الظاهرة وتقديم بحوث عديدة تتناولها،

تكشف عن غنى القرآن الكريم بالإعجاز القرآني عامة وبالتذييل القرآني خاصة، مما يثبت عطاء القرآن الدائم الذي لا تبلى جدّته.

الدراسات السابقة:

إنّ القرآن الكريم مبنيّ على مقاصد أساسية تدل سوره وآياته عليها، وبناء على ذلك فإن سور القرآن لها أساليب وطرق وجِهات مخصوصة في الدلالة على مقصدها الذي يهدي بدوره إلى مقاصد القرآن الكريم، ومن أهم الوسائل العملية المعينة على معرفة مقصد السورة[2]: معرفة فضائل السورة، والتأمل في اسمها، وإمعان النظر في أوائل السورة وأواخرها، والتأمل في الكلمات المكررة في السورة، والنظرة الكلية للسورة ومراعاة سياقها العام.

ولكن لم تتعرّض دراسة علمية مستقلة -على حدّ علمي-للتذييل القرآني وكونه يُعدّ من الوسائل العملية المعينة على معرفة مقاصد القرآن عموما ومقاصد السور خاصة، وتطبيق ذلك على نماذج من التذييل القرآني-كما فعلت الدراسة الحالية- فللتذييل القرآني دور في الكشف عن هذه المقاصد، ولكنّ ذلك يتطلّب إمعان النظر في السورة جميعها والتأمل في سياقها العام.

ولذلك وبعد الاطلاع لم أقف على دراسة مستقلة تناولت ظاهرة التمكّن الدلالي للتذييل القرآني ودلالتها على مقاصد القرآن وسوره، فتبين لي بناء على ذلك حداثة الموضوع وعدم طرقه من قِبل الباحثين على الرغم من أهميّته.

فما تضيفه الدراسة الحالية هو أنها:

- تدرس جملة التذييل القرآني من منظور بياني سياقي مقاصدي، ومن ثَمَّ الخروج بنظرية قرآنية بصدد ذلك، وهي أن جملة التذييل القرآني جاءت متمكّنة دلاليا من سياقها، وهدفت تحقيق مقاصد السور الواردة فيها وتحقيق مقاصد القرآن العامة؛ بالإضافة إلى دورها في إتمام معنى الآية وتوضيح صورتها، واستثارة نفسية السامع

وجذب انتباهه إلى هذا التذييل الجميل وتمكينه من متابعة ورصد ما يتضمّنه من إيحاءات خفية ودلالات رمزية وما يجلّيه من مضامين للسورة.

● تسعى للوصول إلى منهج علمي ينظّم دراسة جملة التذييل القرآني وفق أسس واضحة ومنهج متكامل، يجمع بين دراستها لغويا وبيانيا، وربطها بسياق السورة ومقصدها ومقاصد القرآن الكريم.

وهذا كله – على حدّ علم الباحث – مما لم يُتَناول بدراسة علمية مستقلة محكّمة.

وأما الدراسات المتعلقة بموضوع التذييل القرآني فهي بحوث تطبيقية بلاغية حول تذييل بعض الآيات، من مثل:

– **من أسرار التذييل في آي من التنزيل**: للدكتور رمضان خميس زكي الغريب (1431هـ)، بحث تطبيقي على بعض الآيات من سورة البقرة، سعى في دراسته إلى إبراز صورة من صور البيان البلاغي في التذييل القرآني، مبينا قيمة التذييل في روعة تصوير معنى الآية وجمال بيانها وتأكيد معناها، حيث بيّن مفهوم التذييل وأقسامه، وقيمة التذييل البلاغية وعلاقته بالإعجاز القرآني، والعلاقة بين التذييل والفاصلة والمناسبة، ثم تناول في القسم الثاني من دراسته الجانب التطبيقي للتذييل القرآني على بعض الآيات من سورة البقرة.

– **بلاغة القرآن في تذييل الآيات دراسة تأصيلية**: للدكتور أحمد الشرقاوي (1438هـ)، تعرّض في دراسته إلى بيان معنى التذييل وأهمية دراسته، والفرق بينه وبين الفاصلة، وبيّن فوائد التذييل، وأصول الوقوف على لطائفه، وسماته وفنونه، وركّز على الجانب التأصيلي للتذييل القرآني والتمثيل لكل ما يذكر.

– **التذييل في القرآن الكريم دراسة بلاغية–سورة البقرة نموذجًا:** نالت بها الباحثة فاطمة معزوز درجة الماجستير في الأدب عام 2013م، تحدثت فيها عن علاقة التذييل ببعض مباحث علوم القرآن، وتحدثت عن علاقة التذييل بالسياق، ثم عرضت

للجانب التطبيقي للتذييل في سورة البقرة.

هذا بالإضافة إلى ما كُتب في الفاصلة من الناحية البلاغية، فظهر بذلك أن بعض الدراسات أخذت منحى التطبيق دون التأصيل، أو منحى التطبيق والتأصيل كدراسة الشرقاوي، أما دراستي فقد عُنيت بظاهرة التمكّن الدلالي للتذييل القرآني ودلالتها على مقاصد القرآن وسوره.

منهج البحث:

وللإجابة عن أسئلة الدراسة اقتضت طبيعة الدراسة تعدّد المناهج، ولذلك فإن الباحث جمع بين:

– المنهج الاستقرائي والاستنباطي: في استقراء التذييل القرآني وتصنيفه ضمن حالات التذييل القرآني ومن ثَمَّ استنباط أسراره البلاغية ومظاهر تمكّنه الدلالي في سياقه.

– المنهج الوصفي: الذي يرصد ويصف خصائص ظاهرة التمكّن الدلالي للتذييل القرآني؛ للتوصل إلى نتائج عملية فُسِّرت وَوُصفت بطريقة موضوعية دقيقة تنسجم مع المعطيات والبيانات الصحيحة لهذه الظاهرة، بحيث نثبت تمكّن التذييل القرآني من سياقه، وسرّ هذه التمكّن واللمحات الجمالية فيه، ودور التذييل القرآني في الكشف عن مقاصد القرآن وسوره.

كما تم اعتماد المنهج الوصفي في هذه الدراسة في المطلب الأول من المبحث الأول، والذي تضمّن تعريفا بالمصطلحات الواردة في عنوان البحث، لبيان حدودها ومقصدها، إذ هي التي ستقوم عليها الدراسة، ويُعتمد عليها في بناء التصور القرآني لمحاور الدراسة من خلال التذييل القرآني.

أدوات البحث:

استخدم البحث في جمع المعلومات والبيانات أداة تحليل المحتوى بعد حصر نماذج من التذييل القرآني وتتبّعها من خلال النظر فيما كتبه المفسرون والبلاغيون واللغويون من أسرار ونكات بلاغية للتعبير بهذا التذييل.

حدود البحث:

اقتصرت الدراسة على بيان بعض الأسرار البلاغية للتذييل القرآني في نماذج من آيات القرآن الكريم من خلال عرض حالات التذييل القرآني، وذلك بعد بيان مفهوم التذييل وعلاقته بما قبله من بقية الآية.

خطة البحث:

المقدمة: وقد تضمنت عرض موضوع البحث، وإشكاليته، وأسئلته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهجيّته، وهَيْكله.

المبحث الأول:

المطلب الأول: التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث.

المطلب الثاني: علاقة التذييل بما قبله من بقية الآية.

المبحث الثاني: وهو المقصود من هذه الدراسة، حيث جعلته للدراسة التطبيقية، وذلك من خلال الحديث عن حالات التذييل القرآني، وهي أربع حالات كالآتي:

أولا: اختلاف التذييل في موضع واحد والمتحدث عنه واحد.

ثانيا: اختلاف التذييل في موضعين والمتحدث عنه واحد.

ثالثا: اتفاق التذييل في موضع واحد والمتحدث عنه مختلف.

رابعا: التذييل المشكل.

ومن خلال ذلك قمت بعرض نماذج من آيات القرآن الكريم تمثل هذه الحالات الأربع، وبيّنت وجه ارتباط تذييلها بما قبله من الآية، ثم بيّنت دلالة التذييل القرآني

على مقصد السورة ومقصد القرآن الكريم.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: التذييل القرآني

المطلب الأول: التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث

أولا: التذييل

لغة: مصدر (ذيّل) للمبالغة، وهي لغة: جعل الشيء ذيلا لشيء آخر، فالذيل: آخر كل شيء[3].

اصطلاحا: تعقيب أو ختم الآية بجملة أخرى، متفقة ومتممة لمعناها، بأن تكون تأكيدا لهذا المعنى، أو تلخيصا لمضمونها أو معلّلة لها.

وفرّق الإمام أبو عمرو الداني بين الفواصل ورؤوس الآي، قال: "أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس الآية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آي وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين وتجمع الضربين..."[4].

وكلامنا في هذا البحث هو عن رأس الآية، أو ختام الآية مما هو متمم لمعنى الآية، بكونه تأكيداً أو تلخيصاً أو تعليلاً لهذا المعنى، وعليه فلا يدخل في بحثنا كل رأس آية، إذ إن في رؤوس الآي مما لا يعدّ تعقيبا على الآية وتلخيصاً لمضمونها أو تعليلاً لها، إنما يؤتى به تتميماً للكلام، أما التذييل القرآني فهو كلام مستقل في معنى الآية، يؤتى به بعد تمام الكلام، تحقيقاً لدلالة منطوق الآية أو مفهومها، فالغرض من هذا التذييل: أن يكون دليلا ينضم مع الآية التي ذُيّلت به؛ ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند من فهمه.

من كل ذلك يمكننا صياغة التعريف الإجرائي الآتي للتذييل القرآني بقولنا: أنْ

يُؤتى بعد تمام الكلام في الآية بكلام مستقل يكون في معنى الآية، تحقيقا لدلالة منطوق الآية أو مفهومها، بكونه تأكيدا لمعناها أو تلخيصا لمضمونها أو تعليلا لها؛ ليكون هذا التذييل مع ما بقي من الآية قبله كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند مَن فهمه[5].

ثانيا: عادات القرآن

العادات لغة: من عاد يعود عوْدا، والعوْد: تكرار الأمر وتثنيته[6].

وأما اصطلاحا: فقد اتفق الفقهاء والأصوليون على أن العادة هي الأمر المتكرر، والأمر المتكرر يشمل كل حادث يتكرر؛ لأن لفظة الأمر من أوسع ألفاظ اللغة عموما وشمولا[7].

وبناء على ذلك يمكننا صياغة العريف الإجرائي الآتي لعادات القرآن الأسلوبية في التذييل بقولنا: هي ما كرّره القرآن الكريم من التذييل على حال وطريقة واحدة لمعنى وسرّ خاص أراده القرآن من هذا التكرار[8].

ثالثا: مقاصد السور ومقاصد القرآن الكريم

المقصد لغة: أصل (قصد) الاعتزَام والأَمّ والتوجّه والنهودُ والنهوضُ نَحْوَ الشّيء، على اعتدال كان ذلك أَو جَوْر، هذا أَصله في الحقيقة وإِنْ كان قد يُخَصّ في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل[9]، و "مَقْصِدُ الكلام: مَدلولُه ومضمونُه"[10].

من خلال العرض السابق لاستعمالات مادة (ق ص د) في لغة العرب، نجد أنها تدور على معنيين، الأول: الإتيان والعزم والتوَجّهُ والنهودُ والنهوض نحو الشّيء، والآخر: مضمون الكلام ومدلوله والمقصود منه، وبالجمع بين هذين المعنيين يمكن القول بأن المقصد هو: المغزى والمرجع والمآل والهدف والغرض والعمدة الذي يتّجه إليه الكلام ويرجع إليه ويصبّ فيه.

وبناء على ما سبق عرضه يرى الباحث بأن مقصد السورة هو: مغزى السورة وغايتها الخفيّة الجامعة لمعانيها ومضمونها، ولا يُطّلع عليها إلا بعد استيفاء الكلام والتدبّر فيه[11].

وأما مقاصد القرآن الكريم فهي: الغايات والحِكَم والأسرار العامة والخاصة والجزئية التي يدور حولها القرآن الكريم ونزل من أجلها؛ إصلاحا لأحوال العباد الفردية والجماعية

والعمرانية[12].

رابعا: التمكّن الدلالي

التمكّن لغة: من (مكن) بمعنى القدرة والاستطاعة والقوة والشدة والاستقرار، يقال (أمكنه) من الشيء جعل له عليه سلطانا وقدرة، ويقال فلان لا يمكنه النهوض لا يقدر عليه، وتمكّن عند الناس علا شأنه، وتمكن المكان وبه استقر فيه، وتمكّن من الشيء قدر عليه أو ظفر به[13].

والتمكّن أو الاتّساق[14]مرتبط بالأسلوب من حيث موضع اللفظ في إطار الجملة النحوية الواحدة ومديّات التوافق بينه وما يجاوره من ألفاظ [15]، يقول الجرجاني: "وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه؛ قلقلة ونابية ومستكرهة، إلا وغرَضُهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم، وأنّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقا للتالية في مؤدّاها "[16].

وأما التمكّن الدّلالي للتذييل القرآني فيمكن تعريفه إجرائيا بأنه: حسن الاتفاق والانسجام والانتظام بين أجزاء التذييل القرآني المشكّلة للمعنى، وأن هذا الانسجام والتمكّن يرتبط بالعلاقات بين البُنى المتوالية للسياق بأكمله على وفق: مناسبة دلالة

جملة التذييل لسياقها وسياق السورة العام الذي استدعاها ولمقصد السورة ومقاصد القرآن العامة، وهذه العلاقات مجتمعة مكّنته دلاليا في سياقه، بحيث يؤدّي المعنى المراد بدقة ولا يغني غيرُه من جمل التذييل غناءَه.

خامسا: الإطناب

لغة: أطنب في الكلام يعني بالغ فيه [17]، يقول ابن فارس: "الطاء والنون والباء أصلٌ يدلُّ على ثَبات الشَّيء وتمكنه في استطالة"[18].

اصطلاحا: زيادة اللفظ على المعنى لغرض بلاغي، والإطناب في مواضعه من البلاغة، كما الإيجاز في مواضعه بلاغة [19].

المطلب الثاني: علاقة التذييل بما قبله من بقية الآية

إنّ التذييل القرآني له قيمته في إتمام المعنى، وتوضيح الصورة، ولذا يأتي التذييل القرآني مستقراً في قراره، مطمئنا في مواضعه، غيرَ نافر ولا قلق، يتعلق معناه بمعنى الآية كلها، بحيث لو نزع من الآية لاختل المعنى، ولما حقق الغرض المقصود من الآية، فهو في مكانه يؤدي جزءا من معنى الآية ينقص ويختل بنزعه، وقد يشتدّ تمكن التذييل في مكانه حتى إن السامع ليشعر به قبل نطقه.

والمتأمل في التذييل القرآني يرى أنه على ضربين: ضرب تتناوب فيه أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وضرب ليس كذلك مما هو تعليل أو تأكيد للآية يقصد بذلك تتميم معناها.

وأما تذييل القرآن بأسماء الله وصفاته، فهو يثري التذييل بدلالات لا تحصى من ظلال هذه الأسماء، التي لها طابع القداسة والأهمية، والتي فيها معاني الجلال والجمال، فعدا عما تحدثه هذه الأسماء في التذييل القرآني من جمال يقرع الأسماع ويخالج النفوس؛ لأنها آخر ما يتناهى إلى القارئ والسامع من الآية، فإنها ومن خلال العلاقات التي

تربطها مع بقية الآية قبلها من تمكين وتوشيح وتصدير، تماما في معنى الآية، وتحقيقا للغرض المقصود منها، هذا عدا أيضا عن الإيقاع الموسيقي لهذه الأسماء الحسنى، فمعظمها إن لم نقل كلها مردوف بأحد حروف المد، لاسيما مد الياء، مما يترك صداه الآسر في موقعه من التذييل، وفي تناغمه مع الطابع العام للتذييل القرآني(20).

هذا بالنسبة إلى الدلالات العامة لتردد أسماء الله الحسنى، أما فيما يخصّ كل اسم على حدة، وفي كل موضع، وتقديم بعضها على بعض، والتعبير ببعضها دون الآخر، فباب واسع، اجتزأت منه بعض النماذج من كتاب الله تعالى، عسى أن أكون قد وفقت لبيان بعض الأسرار الجمالية البيانية للتعبير بهذه الأسماء دون غيرها، وكذلك بيان بعض الأسرار البيانية للتعبير بالتذييل القرآني مما هو من غير ما تناوبت فيه أسماء الله الحسنى.

إن للتذييل القرآني علاقةً وثيقةً بما قبله من الآية، وقد يشير سياق الآية إلى تذييلها إشارة لفظية جلّية، وقد يظهر ذلك بعد بحث وتأمل.

فقد يُمهّد للتذييل قبله تمهيدا يأتي به التذييل القرآني ممكنا في مكانه، متعلقا معناه بمعنى الكلام كله قبله تعلقاً تامًّا، بحيث لو نزع التذييل جانبا لاختل المعنى، واضطرب الفهم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ (الأحزاب: ٢٥)، فإن الكلام لو اقتُصِر فيه على قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ لأوهم ذلك بعض ضعفاء الإيمان، وحينها يوافقون الكفار في اعتقادهم وهو أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، فجاء التذييل حينئذ إعلاما من الله للمؤمنين ليزدادوا يقينا على أن الله هو الغالب وكذا حزبه، وأن النصر بيد الله تعالى، وأن الريح ليست هي التي نصرتهم، بل هي جند من جنود الله تعالى أرسلها الله على أعدائه؛ لينصر عباده

المؤمنين، ويزيدهم يقينا بأن الناصر هو الله تعالى وحده، وهذا التمهيد أطلق عليه البلاغيون التمكين، والتذييل القرآني يمكن إدراجه تحت هذا الإطلاق[21].

وقد يتقدم لفظ التذييل بمادته في أول صدر الآية أو في أثنائها أو في آخرها كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨)، وهذا ما يسميه البلاغيون بالتصدير، ويسمى عند البلاغيين القدماء بردّ الأعجاز على الصدور[22].

وقد يرد في الآية معنى يشير إلى التذييل حتى يعرف منه قبل قراءتها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الملك: 13)، وهذا ما يطلق عليه البلاغيون التوشيح، وهو ما كانت دلالته على التذييل معنوية، بخلاف التصدير فتكون دلالته على التذييل لفظية، وفي التمكين يكون في الآية تمهيد للتذييل، فيأتي التذييل متمما لمعنى الآية[23].

والمتأمل في غرض التذييل القرآني يرى أنه لم يأت مجرد توافق ألفاظ، ولم يأت في الآية لمناسبة لفظية مرغوبة كمراعاة للفاصلة فحسب، بل إنه بالإضافة إلى ذلك جاء ليتمّم معنى الآية، ويحقق الغرض المقصود منها، فقد يكون التذييل تعقبا على الآية، أو تلخيصا لمضمونها، أو توكيدا لمعناها، أو تعليلا لها، أو ترغيبا في امتثال ما جاء من الأمر فيها، أو ترهيبا ممّا جاء من النهي فيها.

ولذا فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى بلاغة التذييل القرآني هذه النظرة المحدودة التي لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ، فإن هذه الصورة اللفظية الحسية مع جمالها لا يصح أن تصرفنا، ولا تحجب عن ذهننا ما استتر فيها من بدائع الأسرار، ودقائق الأغراض، فالتذييل القرآني تابع لمعاني الآيات لا العكس؛ لأن قولنا إن المعاني تابعة للتذييل يقلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذ الغرض إنما هو الإبانة عن المعاني التي إليها

الحاجة ماسة، وعليه فما دام التذييل القرآني تابع للمعنى، فيمكننا أن نصفه حينئذ بالبلاغة[24].

المبحث الثاني

الدراسة التطبيقية (حالات التذييل القرآني)

من خلال النظر في العديد من الجمل التذييلية للآيات الكريمة ، لاحظت أن هذه الجمل التذييلية قد تأتي أحيانا مختلفة في موضع واحد من نفس السورة والمتحدِّث عنه واحد، وأحيانا تأتي هذه الجمل مختلفة في موضعين من سورتين مختلفتين، والمتحدِّث عنه واحد، وأحيانا أخرى تتّحد هذه الجمل في موضع واحد من نفس السورة والمتحدِّث عنه مختلف، وهذه الحالات الثلاث للجمل التذييلية لها علاقة وثيقة بما قبلها من النص القرآني في الآية وتبدو هذه العلاقة ظاهرة جلّية، ولكن هناك من الجمل التذييلية المشكلة من حيث ربطها بما قبلها من النص القرآني، فهي تحتاج إلى تدقيق في التفكير وإلى بحث ونظر، وعندها إذا أُنعم النظر ودُقِّق في الكلام، عُلم أنه يجب أن يكون التذييل على ما عليها التلاوة، ولذا ارتأيت أن أجعل هذه الدراسة للتذييل القرآني وبيان ما فيه من الإعجاز البياني ضمن الحالات الآتية:

المطلب الأول: اختلاف التذييل في موضع واحد والمتحدَّث عنه واحد

في هذه الحالة يختلف التذييل القرآني في نفس السورة، علما بأن الموضوع واحد، ومن ذلك:

النموذج الأول: كذّب القرآنُ الكريم المشركين حينما وصفوا القرآن بالشعر والكهانة فال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ (الحاقة:40 - 42)، والملاحظ في الآية الكريمة أنها عقّبت نفي الشّعر بالتذييل ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾، ونفي الكهانة بالتذييل ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؟

ولعل السرّ في ذلك هو أنّ مخالفة القرآن لنظم الشعر واضحة لا تخفى على أحد، فَقَوْل من قال إنه شعر: كُفر وعناد محض، فناسب ذلك ختمه بـ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾، فمن نسب النبي ﷺ إلى الشعر فهو جاحد كافر، لأنه يعلم أن القرآن ليس بشعر لا في أوزان آياته ولا في تشاكل مقاطعه، إذ منه آية طويلة وأخرى إلى جانبها قصيرة، كآية (الدَّيْن) وما قبلها (البقرة: 281، 282)، وأما اختلاف المقاطع، فهو غير خاف عن العرب شاعرها ومفحمها إنه ليس بشعر، فمن نسبه إلى أنه شاعر، فهو لقلة إيمانه، ولذلك كان التذييل بـ ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾، وأما من قال: إنه كاهن؛ فلأن كلام الكهنة نثر غير نظم، فمن قال: إنه ككلام الكهان، فإنه ذاهل عن تذكّر ما بُني عليه كلامهم من السجع الذي يُتبعون فيه معاني ألفاظهم، وحق اللفظ في البلاغة أن يكون تابعا للمعنى، وهو ما عليه القرآن، فكلٌّ من القرآن وسجع الكّهان نثر، والتفرقة بينهما تحتاج إلى تدّبر وتذكر، إذ المخالفة بينهما ليست واضحة وضوح الشعر والقرآن، وإنما تحتاج إلى تذكّر ما في القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعاني الأنيقة، ولذلك حَسُن ختمه بالتذييل﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[25].

نخلص من ذلك كله بقولنا: إنّ التذييل القرآني لهاتين الآيتين﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ و﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ جاء من باب التعليل للآية، فالتذييل﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ جاء تعليلا لقولهم بأن النبي ﷺ شاعر، وما سبب قولهم ذلك إلا لقلة إيمانهم؛ لأنه لا يخفى عليهم مخالفة القرآن لنظم الشعر.

وكذلك الحال في التذييل القرآني بـ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، فقد جاء تعليلا لقولهم بأن النبي ﷺ كاهن، وما سبب قولهم ذلك إلا لقلة تذكرهم ما بني عليه كلامهم من السجع الذي يُتبعون فيه معاني ألفاظهم، وما بنيت عليه ألفاظ القرآن من كونها تابعة للمعنى.

وأما دلالة التذييلين﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ على مقصد سورة الحاقة ومقصد القرآن الكريم فتظهركما يأتي:

بداية نقول إنّ القرآن الكريم مبنيّ على مقاصد أساسية تدل سوره وآياته عليها، وبناء على ذلك فإن سور القرآن لها أساليب وطرق وجِهات مخصوصة في الدلالة على مقصدها الذي يهدي بدوره إلى مقاصد القرآن الكريم، ومن الوسائل العملية المعينة على معرفة مقصد السورة مما يتعلق بموضوع الدراسة: التأمل في التذييل القرآني، فهو يكشف عن مقاصد القرآن عموما ومقاصد السور خاصة، وذلك يتطلّب إمعان النظر في السورة جميعها والتأمل في سياقها العام.

مقصد سورة الحاقة: تتفق هذه السورة مع بيان أهداف التنزيل المكي فقد عُنيت بأصول العقيدة، وتحدثت عن أهوال القيامة، وصدق الوحي، وكون القرآن كلام الله تعالى، وتبرئة الرسول ﷺ من افتراءات الكفار واتهامات الضالين، ولذلك فهي تركّـز على حتمية وقـوع القيامة تأكيدًا لصدق القرآن، ووعدًا للمؤمنين بالفرحة، ووعيدًا للمكذبين بالحسرة(26).

وهنا تظهر المناسبة جليّة بين دلالة التذييلين﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وبين مقصد السورة، حيث يصوّر سياق التذييلين مدى تكذيب الكفار وعنادهم وافتراءاتهم على القرآن والنبي ﷺ ومدى الغيظ والغضب الذي يكمن في نفوسهم على القرآن الكريم، ثم تحوّل هذا الغيظ إلى افتراءات على القرآن الكريم ظهرت على ألسنتهم بقولهم عن القرآن بأنه شعر وكهانة، وهذا في غاية المناسبة لمقصد سورة الحاقة الذي تضمّن إثبات الوحدانية والنبوة والبعث والجزاء، وتهذيب نفوسهم وتزكيتها وإصلاح فكرهم وضرورة استعمال عقولهم، فالتعقّل طريق إلى التذكّر، والتذكّر طريق إلى التقوى وثمرتها صلاح الاعتقاد والإيمان.

وهكذا نجد التذييلين ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ يقومان ببناء التصور الاعتقادي تجاه القرآن الكريم وتوضيحه وتخليصه من تأويلات وافتراءات وتحريفات الكفار، وكذلك تجاه النبي ﷺ بتقرير نبوّته وتخليصه من افتراءاتهم، وبذلك يحقق الصلاح الفردي ورأسه صلاح الاعتقاد، ومن ثَمّ القيام بما أوجبه الله على هذه الأمة من إصلاحات متمثلة بالإصلاح الجماعي والعمراني والتي تبدأ من الإصلاح الفردي، وكأن التذييلين السابقين أصبحا شعارا يرمزان إلى دلالات متعددة فهما من جهة رمز للكفار ببطلان افتراءاتهم على القرآن الكريم وعلى النبي ﷺ وتحذيرا لهم ووعيدا لهم بالحسرة، وهما بذلك يمثّلان النموذج السلبي للمقصد الذي تركّز عليه السورة، نموذج مَن يكذّب بالقرآن مِن الكفار، ومن جهة أخرى فهما رمز مُثَبِّت للمؤمنين ومسلّ للنبي ﷺ عما يلاقيه من تكذيب كفار قريش وصدّهم له، وافتراؤهم عليه.

وبذلك لم يَعْدِ التذييلان ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى مقصد سورة الحاقة ويدلان عليه فحسب، بل إنهما حقّقا كذلك مقصد من مقاصد القرآن العامة وهو إصلاح الاعتقاد.

النموذج الثاني: يرشد الله تعالى الأزواج إلى المعاملة الحسنة، والخوف من الله والمسامحة عند الانفصال، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾**﴾ (النساء: ١٢٨ ـ ١٢٩).

والملاحظ هنا خَتْم الآية الأولى بالتذييل ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾

والآية الثانية بالتذييل﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، وليتسنّى لنا الوقوف على سرّ التعبير بذلك فلا بدّ لنا من الوقوف على معنى الآيات.

المعنى في الآية الأولى: إنْ امرأة خافت من زوجها ترفعا عليها بالتقتير في نفقتها؛ لبغضها أو طموح عينه إلى ما هو أجمل منها أو نبوّ الملل أو إعراضًا لموجِدة، فلا إثم في أن يتصالحا على أن تترك له من مهرها أو بعض أثاثها ما يتراضيان به، والصلح خير، ونفس كل منهما تشحّ بما لها من قبل صاحبها، ومثل هذه الظروف تقتضي أن يعامل الأزواج الزوجات بالحسنى وترك القبيح، فإن فعلوا ذلك وتجافوا القبيح وآثروا المعاملة بالإحسان فالله تعالى به عليم وعليه مجاز، ولهذا حسن ختام هذه الآية بالتذييل:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (27).

ولذا فقد جاء هذا التذييل تعليلا لما ندب الله تعالى عليه الأزواج من حسن المعاملة للزوجات، ولتأكيد وجوب الامتثال، فكون أن الله عز وجل هو البالغ في العلم سبحانه، فيعلم الأشياء والأمور من المصالح والمفاسد، ويعلم الأمور على ما تقع عليها، فهو سبحانه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة، فما ندب عليه الأزواج من حسن معاملتهم لأزواجهم إلا لما في ذلك من المصلحة لهم ولأولادهم ومجتمعهم.

وأما حكمة التعبير بـ﴿ خَبِيرًا ﴾ دون ﴿عَلِيمًا ﴾ مثلا، فهي أن الخبرة أخص وأدق من العلم، فالخبير في صفاته تعالى بمعنى العالم ببواطن الأمور وظواهرها وبما كان منها وما يكون، والعالم بأخبار مخلوقاته لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، فالله تعالى لما رغّب في الإحسان والتقوى في حقّ الزوجات بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، بيّن أن اتقاء النشوز والإعراض سبب في حسن الجزاء وعظم المثوبة من الله تعالى، وأما إن لم تمتثلوا بعدم

اتقاء النشوز والإعراض ، فإن الله سبحانه خبير بذلك عالم بإعراض قلوبكم عن أزواجكم، وعالم بنشوزكم الظاهر في حق أزواجكم، فلما كان الله تعالى عالم ببواطن أمورهم وظواهرها ناسب استعمال ﴿ خَبِيرًا ﴾ دون ﴿ عَلِيمًا ﴾[28].

المعنى في الآية الثانية: إنّ العدل بين النساء في محبتهن غير مستطاع؛ لأن ذلك ليس إليكم وإن حرصتم على التسوية بينهن، فلا تميلوا كل الميل بأن تجعلوا كل مبيتكم وجميل عشرتكم وسعة نفقتكم عند التي تشتهونها دون الأخرى، فتبقى معلقة لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، فاقتضت تلك الظروف أن يحث الأزواج على إصلاح ما كان بينهم من الانصباب إلى الواحدة دون ضَراتها بالتوبة مما سلف واستئناف ما يقدرون عليه من التسوية، ويملكونه من الخلوة، وسعة النفقة، وحسن العشرة، فلمّا عذر الأزواج في بعض المَيْل وهو الذي لا يملكون خلافه، وحثّهم على ما يطيقون فعله وعلى صلاح ما سلف منهم، جاء التذييل؛ ليبيّن أن الله يغفر لمن يقلع عن ذنوبه، ويؤثر بعدها الحسنى من أفعاله[29]، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ولذا جاء هذا التذييل من باب الترغيب للأزواج بالعدل مع أزواجهم فيما يطيقون، وترهيبا بالاستمرار في ظلم الزوجة مع القدرة على العدل بينهما وبين ضرّاتها.

وأما سبب تقديم ﴿غَفُورًا ﴾ على ﴿رَّحِيمًا ﴾؛ فلأن المغفرة ستر للذنوب، وأما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب، لذا قدِّمت المغفرة على الرحمة، والتخلية مقدمة على التحلية[30].

وحيث إن هذه الآيات الكريمة واردة في سياق ذنوب الأزواج، أو في سياق تقصيرهم فيما أمروا به من العدل بين النساء، فناسب لذلك تقديم ﴿غَفُورًا ﴾ وبعدها يتفضل عليهم ويرحمهم، أو نقول إن الله يستر ذنوبهم، ويتجاوز عن خطاياهم؛ لأنه عظيم الرحمة بهم وبمن خلق فجاء الوصف بـ(الرحيم) تعليلا لمغفرته

التي وسعت ذنوب العباد جليلها ودقيقها، وبهذا نجد أن كل تذييل في الآيتين قد وقع موقعه وحل محلّه.

بمثل هذا الإحكام في ترتيب الصفات ننظر إلى تقديم (الغفور) على (الرحيم) في أكثر من سبعين موضعا من الجمل التذييلية في القرآن، حيث يجيء الوصف بـ(الرحيم) تعليلا لمغفرته التي وسعت ذنوب العباد جليلها ودقيقها، ووسعت ذواتهم، فهو واسع المغفرة عظيمها، يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عن خطاياهم؛ لأنه عظيم الرحمة بمن خلق، وهكذا جاء وصف الرحمة متأخرا أبدا إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (سبأ: ١ ـ ٢)، وفي البحث عن سّر هذا المخالفة، نرى أن الغفور يتقدم في كل موطن يهمس فيه السياق بوقوع المعاصي وكفران النعم، والدعوة إلى التوبة والاستغفار من الذنوب، فتكون المبادرة بالمغفرة؛ لطمأنة المذنبين والخطائين إلى أن يد الله ممدودة إليهم، تعفو عنهم وتستر خطاياهم؛ لأنه رحيم بهم، كما نجده في مثل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٨٩)، أما الآية التي تقّدمت فيها الرحمة من سورة سبأ، فهي في سياق يعّدد الله تعالى فيه نعمهُ على خلقه المستوجبة للحمد والشكر عليها، فيذكر إحكام أمره، وهيمنته على ما في السموات والأرض إيجادا وإعداما، وإحياء وإماتة، وتدبير أمر الكون وتسخير ما فيه للإنسان، هذه النعم الجليلة مصدرها ودوام بقائها رحمة الله الواسعة بخلقه مع مقابلتهم لها بالكفران والنسيان، فتقديم الرحمة هو الأنسب بهذا السياق، حيث كانت سبب نعمه، وهي بعد ذلك سبب في تجاوزه عَّمن أنعم عليهم إن هم قصّروا في شكره عليها[31].

وللسهيلي وجه في هذا التقديم لا يبعد عن بلاغة النظم؛ لأنه يجعل الترتيب ضربا من الترقّي بذكر الخاص بعد العام، يقول: "وأما قوله ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ في (سبأ)، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، إما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصّهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص"[32].

وأما دلالة التذييلين﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ على مقصد سورة النساء ومقصد القرآن الكريم فتظهر كما يأتي:

مقصد سورة النساء: تنظيم المجتمع المسلم من داخله من خلال حفظ الحقوق الاجتماعية والمالية، إزالةً لرواسب الجاهلية وتركيزًا على حقوق النساء والضعفاء، وتضمنت السورة الكلام عن أحكام الأسرة الصغرى الخلية الاجتماعية الأولى، والأسرة الكبرى المجتمع الإسلامي وعلاقته بالمجتمع الإنساني، فأبانت بنحو رائع وحدة الأصل والمنشأ الإنساني بكون الناس جميعا من نفس واحدة، ووضعت رقيبا على العلاقة الاجتماعية العامة بالأمر بتقوى الله في النفس والغير وفي السر والعلن[33].

وهنا تظهر المناسبة جليّة بين دلالة التذييلين وبين مقصد السورة، حيث تضمّنت الآيتان السابقتان من سورة النساء (١٢٨–١٢٩) الحديث عن أحكام النساء، وتوطيد دعائم الرابطة الزوجية بالإصلاح، وبالعدل بين الزوجات حال التعدد[34]، وهذا في غاية المناسبة لمقصد سورة النساء الذي تضمّن تنظيم المجتمع المسلم من داخله من خلال حفظ الحقوق الاجتماعية والمالية، وذلك بتنظيم الأسرة الصغرى الخلية الاجتماعية الأولى وكيفية فض النزاع بين الزوجين والحرص على عقدة النكاح، إزالةً لرواسب الجاهلية وتركيزًا على حقوق النساء والضعفاء، وتزكية نفوس الأزواج

وتربيتها على التسامح والإحسان، فقد جُبِلت النفوس على الحرص والبخل، فلا ترغب في التنازل عما لها من حق، فبيّن الله تعالى لهم أنهم إن أحسنوا في كل شؤونهم، واتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن الله كان بما يعملون خبيرًا لا يخفى عليه شيء، وسيجازيهم به، كذلك إنْ أصلح الأزواج ما بينهم بأن يحمِلوا أنفسهم على ما لا تهواه من القيام بحق الزوجة ويتقوا الله فيها، فإن الله كان غفورًا رحيمًا بهم.

وبذلك وضعت الآيتان السابقتان رقيبا على العلاقة الزوجية بالأمر بتقوى الله في النفس والغير وفي السرّ والعلن، وبذلك يحقق الصلاح الفردي ورأسه صلاح الاعتقاد، ومن ثَمّ القيام بما أوجبه الله على هذه الأمة من إصلاحات متمثلة بالإصلاح الجماعي-الأسرة الكبرى وهي المجتمع الإسلامي وعلاقته بالمجتمع الإنساني- والإصلاح العمراني، وتبدأ هذه الإصلاحات من الإصلاح الفردي، وقد هدفت سورة النساء تحقيق هذه الإصلاحات مبتدئة من تنظيم المجتمع المسلم من داخله من خلال الأسرة الصغرى الخلية الاجتماعية الأولى، وهكذا يتحقق المقصد الأعلى العام من القرآن الكريم وهو هداية الأمة وتنزيهها، و"تحقيق الصلاح على المستوى الفردي والجماعي والعمراني" (35)، وكأن التذييلَيْن السابقين أصبحا شعارا ورمزا للأزواج في علاقاتهم الزوجية، وترغيبا لهم بالعدل والإحسان مع أزواجهم فيما يطيقون، وترهيبا وتحذيرا لهم من الاستمرار في الجَوْر في معاملتهم وترك الإحسان معهم، كذلك فقد أصبح التذييلان السابقان شعارا للأزواج لتحصيل التقوى، وذلك بالعدل والإحسان مع الزوجات.

وبذلك لم يَعْدِ التذييلان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إلى مقصد سورة النساء ويدلان عليه فحسب، بل إنهما حقّقا كذلك مقاصد القرآن المدني العامة من بيان أحكام التشريع المتعلقة بالعلاقة الزوجية

وأحاطته بسياج عقدي بالأمر بتقوى الله، وفي ذلك إصلاح فردي يؤدي إلى إصلاحات جماعية كذلك.

المطلب الثاني: اختلاف التذييل في موضعين، والمتحدَّث عنه واحد

في هذه الحالة يختلف التذييل القرآني في سورتين، علما بأن الموضوع واحد، ومن ذلك: ما وصف الله تعالى به الإنسان، وما وصل إليه من التنكّر للخير والبطر على النعمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ (إبراهيم: ٣٢)، ثم يبيّن الله تعالى نعمه على عباده، ويمتنّ بها عليهم، فيقول تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وفي سورة النحل يسوق المولى سبحانه كثيرا من الآيات الدالة على ألوهيته، الناطقة بروبيته، ثم يختم هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: 18).

إنّ المتدبِّر في هذه الآيات يلاحظ اختلاف التذييلين فيها مع أن المتحدّث عنه شيء واحد، وينقل الزركشي عن ابن المنير في تفسيره الكبير (البحر الكبير في بحث التفسير)[36] في سرّ اختلاف التذييلين قولَه: "كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلوما وكونك كفارا، ولي عند إعطائها وصفان وهما أني غفور رحيم أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء"[37].

وأما حكمة تخصيص آية النحل بوصف المنعِم، فيكون تذييلها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وآية إبراهيم بوصف المنعَم عليه، فيكون تذييلها: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ فلأن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه

من التنكر للخير، والبطر على النعمة، فناسب ذكر التذييل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ عقِب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر التذييل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ عقِب أوصافه سبحانه وتعالى(38).

وفرّق أبو حيان بين الختمين بأنه هنا لما تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ (إبراهيم: ٢٨)، وبعده قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ (إبراهيم: ٣٠)، فكان ذلك نصا على ما فعلوا من القبائح من الظلم والكفران، ناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه فختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وأما في النحل فلما ذكر عدة تفضلات وأطنب فيها وقال جل شأنه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٧)، أي من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق، ذكر من تفضلاته تعالى اتصافه بالغفران والرحمة تحريضا على الرجوع إليه سبحانه، وأن هاتين الصفتين هو جل وعلا متصف بهما كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمن به تعالى وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق تبارك وتعالى أنه يغفر زلاته السابقة ويرحمه، وأيضا فإنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان ذكر ما حصل من المنعم ومن جنس المنعم عليه، فحصل من المنعم ما يناسب حالة عطائه وهو الغفران والرحمة، إذ لولاهما لما أنعم عليه، وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسب حالة الإنعام عليه ويقع معها في الجملة وهو الظلم والكفران، فكأنه قيل: إن صدر من الإنسان ظلم فالله تعالى غفور، أو كفران فالله تعالى رحيم؛ لعلمه بعجز الإنسان وقصوره(39).

وقال البقاعي عند تفسيره سورة إبراهيم: "ولما كان أكثر هذه السورة في بيان الكفرة وما لهم، وبيان أن أكثر الخلق هالك معرض عما يأتيه من نعمة الهداية على أيدي

الرسل الدعاة إلى من له جميع النعم للحياة الطيبة بسعادة الدارين، ختم الآية ببيان ما اقتضى ذلك من صفات الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي هذا النوع لما له من الأنس بنفسه، والنسيان لما ينفعه ويضره، والاضطراب بسبب ما يغمه ويسرّه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي بليغ الظلم والكفر حيث يهمل الشكر، ويتعداه إلى الكفر، وختم مثل ذلك في سورة النحل بـ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن تلك سورة النعم، بدئت بالنهي عن استعجال العذاب، لأن الرحمة أسبق، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع، فالتقدير إذن هناك: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة لأنه غفور رحيم، وأما هذه السورة فبدئت بأن الناس في الظلمات "(40).

يتبين مما سبق أن سورة إبراهيم قد أطنبت في ذكر النِعم وذكر تفضلاته سبحانه وتعالى على عباده، ودعته السورة إلى شكر الله تعالى، ولكن الإنسان لظلمه قد يقصّر في شكر النعمة، ويتبطّر عليها، ولذا جاءت آية النحل تذكر طرفا آخر من تفضلاته سبحانه على عباده، وهو الغفران والرحمة لمن ظلم وتبطر على نعم الله، فالله تعالى غفور لمن صدر منه الظلم، ورحيم لمن صدر منه كفران، وفي هذا من الترغيب والتحريض على الرجوع إلى الله تعالى وعبادته وحده، ولذا جاء التذييل في آية سورة إبراهيم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ من باب التعليل لتقصيره في شكر النعمة، فهو يقصر في شكر النعمة لظلمه وكفره، وأما تذييل آية النحل بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، فجاءت من باب الترغيب للرجوع إلى الله تعالى، وفي ذلك أيضا تقرير لمضمون الآيات التي سبقت هذا التذييل، فمن يسوق الأدلة الكثيرة الدالة على ألوهيته، الناطقة بربوبيته، ما هو إلا غفور رحيم، يسوق لهم الأدلة ليتوبوا فيغفر لهم ويرحمهم سبحانه.

وأما دلالة التذييلين ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ على مقصد سورتي إبراهيم والنحل ومقصد القرآن الكريم فتظهركما يأتي:

مقصد سورة إبراهيم: بيان وظيفة الرسل وحرصهم على إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، في مقابل إعراض أقوامهم، تثبيتًا للنبي ﷺ وتوعدًا للظالمين، وقد تضمّنت إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله وبالرّسل وبالبعث والجزاء، وإقرار التّوحيد، والتّعريف بالإله الحقّ خالق السّموات والأرض، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور، واتّحاد مهمّة الرّسل ودعوتهم في أصول الاعتقاد والفضائل وعبادة الله والإنقاذ من الضّلال، وذمّ الكافرين ووعيدهم على كفرهم وتهديدهم بالعذاب الشّديد(41).

مقصد سورة النحل: التذكير بالنعم الدالة على المنعم، إلزامًا بعبوديته وتحذيرًا من جحود نعمته، وقد تضمنت هذه السورة الكلام على أصول العقيدة وهي الألوهية والوحدانية، والبعث والحشر والنشور، وأوضحت السورة نعم الله تعالى الكثيرة المتتابعة، وذكّرت الناس بنتيجة الكفر بها، وعدم القيام بشكرها(42).

وهنا تظهر المناسبة جليّة بين دلالة التذييلين وبين مقصد السورتين، حيث أطنبت سورة إبراهيم في ذكر النِعم و ذكر تفضلاته سبحانه وتعالى على عباده، ودعتهم السورة إلى شكر الله تعالى، ولكن الإنسان لظلمه قد يقصّر في شكر النعمة، وجاءت آية النحل تذكر طرفا آخر من تفضلاته سبحانه على عباده وهو الغفران والرحمة لمن ظلم و تبطر على نعم الله، وهذا في غاية المناسبة لمقصد السورتين اللتين تضمّنتا إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله وبالرّسل وبالبعث والجزاء، وإقرار التّوحيد، والتّعريف بالإله الحقّ خالق السّموات والأرض، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور، وبذلك يحقق الصلاح الفردي

ورأسه صلاح الاعتقاد، وكأن التذييلَيْن السابقين أصبحا شعارا ورمزا لدلالات متعددة، فهما من جهة رمز للشرك وكفران النعمة، وهما بذلك النموذج السلبي للمقصد الذي تركز عليه السورتين، نموذج مَن يُعرض عن التوحيد ومَن يعطيه ربّه النعم فيكفرها، ومن جهة أخرى رمز وشعار للمؤمنين ليحذروا من التشبّه بهؤلاء الكفار في كفرهم لِنِعم المولى سبحانه وإعراضهم عن التوحيد، وبذلك فإن هذين التذييلَيْن يفسّران واقع الصراع الدائم والمفارقة البعيدة بين أهل الإيمان وأهل الشرك حيال موقفهم من نِعم الله تعالى ومن توحيده سبحانه، لنخلص من ذلك كله إلى أن سورتي إبراهيم والنحل هما سورتا توحيد الربوبية.

وهكذا يتحقق المقصد الأعلى العام من القرآن الكريم وهو هداية الأمة وتنزيهها، و"تحقيق الصلاح على المستوى الفردي والجماعي والعمراني"(43)، وبذلك لم يَعْدِ التذييلان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ إلى مقصد سورتي إبراهيم والنحل ويدلان عليه فحسب، بل إنهما حقّقا كذلك مقاصد القرآن المكي العامة من الإصلاح الفردي-ورأسه صلاح الاعتقاد-والجماعي.

المطلب الثالث: اتفاق التذييل في موضع واحد، والمتحدث عنه مختلف

ومثال ذلك قوله تعالى في تنظيم طريقة الاستئذان في داخل البيوت للإماء والأطفال ومَن بلغوا الحُلُم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾(النور: ٥٨ـ٥٩).

سبق أن بيّن الله تعالى في هذه السورة أحكام استئذان الأجانب بعضهم على بعض، وهنا يبين الله تعالى أحكام استئذان الأقارب بعضهم على بعض في داخل البيوت، فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان، إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة فهم يستأذنون فيها، وهي: من قبل صلاة الفجر لأنه وقت النوم في الفراش واليقظة من المضاجع وتغيير ثياب النوم وارتداء ثياب اليقظة، ويحتمل انكشاف العورة، وحين تخلعون ثياب العمل وتستعدون للنوم وقت الظهيرة أو وقت القيلولة لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت خلع ثياب اليقظة، ولبس ثياب النوم، وسماها (عورات) لانكشاف العورات فيها، وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم، ويستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، فكان من القبيح أن يرى مماليكهم وأطفالهم عوراتهم؛ لأن ذلك منظر يخجل منه المملوك وينطبع في نفس الطفل لأنه لم يعتد رؤيته، ولأنه يجب أن ينشأ الأطفال على ستر العورة حتى يكون ذلك كالسجية فيهم إذا كبروا، والعليم الحكيم يريد أن يؤدب المؤمنين بهذه الآداب لتكون أمة سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب[44].

إن المتدبِّر لهاتين الآيتين الكريمتين لا بدّ أن يتساءل عن سرّ تذييلها بـ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وعن سرّ تقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾، ثم ما سرّ اتفاق التذييلين في الآيتين، مع أن المتحدّث عنهما مختلف؟

لعلّ سرّ التعقيب بهذا التذييل في الآيتين هو أنّ المقام مقام علم الله بنفوس البشر وما يصلحها من الآداب، ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب، والله ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغٌ في العلمِ بجميع المعلوماتِ فيعلم أحوالَكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيلِه فيشرع لكُم ما فيه صلاحُ أمرِكم معاشا ومعادا"[45]، فلما كان السياق يتحدّث

عن علم الله بنفوس البشر وأحوالهم وما يصلح أمرهم ذيَل الآية بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ ثم إن الله تعالى بناء على علمه بأحوال البشر ونفوسهم يشرع لهم ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة، ولا يكون ذلك إلا من حكيم يقدر على وضع الأمور في مكانها الصحيح، ويحسن تدبير أمور خلقه بما يحقق لهم السعادة معاشا ومعادا، ولذا جاء هذا التذييل بـ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليلا للأمر السابق، ولتأكيد وجوب الامتثال، فالله هو البالغ في العلم والحكمة، فيعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، ولا يأمرهم إلا بما فيه مصلحتهم، ولا ينهاهم إلا عما فيه مفسدتهم، ولا يحكم بينهم إلا بما تقتضيه الحكمة.

وأما سرّ تقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾؛ فلأن من مقتضيات الحكمة أن يسبقها العلم، فمن يشرع لعباده ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة، لا بدّ قبل ذلك أن يكون عالما بنفوسهم وأحوالهم، وإلا شرع لهم ما يوقعهم في الشقاء والتعاسة، فهو سبحانه حكيم لأنه عليم، فالعلم سبب يؤدي إلى الحكمة في تدبير الأمور، لهذا كله ذُيّلت الآيتين بـ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وأما عن سرّ اتفاق التذييلين في الآيتين، مع أن المتحدّث عنهما مختلف، فلعلّ ذلك يعود إلى أنّ الآيتين في موضوع واحد وهو استئذان الأقارب بعضهم على بعض في داخل البيوت، لكن الآية الأولى: خاصة بالإماء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلم، والثانية: في الذين بلغوا الحُلم، فاختلف الحال في كل آية، لكن التذييلين فيهما جاءا متّحدين؛ لتشابه الآيتين في الهدف والغاية، وهو بيان آداب استئذان الأقارب بعضهم على بعض في داخل البيوت، وذلك لما فيه صلاح أمرهم معاشا ومعادا، وكما اتحدا في الهدف والغاية اتحدا في التذييل.

وأما دلالة التذييل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ على مقصد سورة النور ومقصد القرآن الكريم فتظهركما يأتي: **مقصد سورة النور:** التركيز على قضية العفاف والستر وصفاء

المجتمع المسلم وتحصينه من أسباب الفاحشة وكيد المنافقين في نشرها[46].

وهنا تظهر المناسبة جليّة بين دلالة التذييل وبين مقصد السورة، حيث تضمّنت سورة النور تنظيم الحياة الاجتماعية للناس ببيان الآداب والفضائل، وتشريع الأحكام والقواعد المهمة التي تتعلق بالأسرة؛ من أجل بنائها على أرسخ الدعائم، وصونها من المخاطر والعواصف، والتركيز على تماسكها وتنظيمها، وحمايتها من الانهيار والدمار[47]، فما شرعه الله تعالى من هذه الأحكام ما هي إلا لمصالح عباده وهو سبحانه عليم بها، حكيم بما دبره لهم وشرع من هذه الأحكام.

وبذلك يحقق الصلاح الفردي ورأسه صلاح الاعتقاد، وذلك بتهذيب النفس وتزكيتها وتربيتها على الالتزام بهذه الآداب والفضائل، وكأن التذييل السابق أصبح شعارا ورمزا لقضية العفاف والسّتر وصفاء المجتمع وتحصينه من أسباب الفاحشة، ففي تشريعه سبحانه لأحكام استئذان الأقارب بعضهم على بعض في الآيتين السابقتين (58-59) وقاية قبل وقوع الفاحشة، وبهذا يتحقق المقصد الأعلى العام من القرآن الكريم وهو هداية الأمة وتنزيهها، وتحقيق الصلاح على المستوى الفردي والجماعي والعمراني، وبذلك لم يَبْدِ التذييل ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ إلى مقصد سورة النور ويدل عليه فحسب، بل إنه حقّق كذلك مقاصد القرآن المدني الأصلية[48] التي جاء القرآن لبيانها من تهذيب الأخلاق وبيان الآداب والفضائل المتعلقة بالاستئذان وتشريع الأحكام المناسبة له التي تصون الأسرة والمجتمع من المخاطر، وتعمل على تماسكه وحمايته من الانهيار.

المطلب الرابع: التذييل المشكل

حقّ الجملة التذييلية أن تكون ممكِّنة للمعنى المسوق له الكلام، وأن تؤكّد الغرض المقصود من الآية بأن تأتي في مكانها مستقّرة في موضعها غير نافرة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث يفتقر الكلام إليها[49].

وقد سبق معنا من هذه الجمل التذييلية الكثير الذي يثبت ذلك، لكننا أحيانا حينما نقرأ بعض الجمل التذييلية في بعض الآيات، نجدها في ائتلافها مع ما قبلها– مع بقائها على هذا الوضع– تحتاج إلى تدقيق في التفكير وإلى بحث ونظر لنتبيّن وجه ملاءمتها للآية، والأمثلة على ذلك متعّددة، نكتفي بمثال واحد، والمتدبرّ في آيات الله لا بّد أن يلحظ الكثير من ذلك، ويقف عل سّر التعبير بذلك.

قال تعالى حكاية عن عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مقالته في قومه حينما ادّعَوْا عليه أنه قال لهم: ﴿ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ١١٦)، فقال عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨)، فإنّ قوله: ﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ يوهم أن التذييل هو ﴿ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وقد نقل هذا عن مصحف أبيّ(50) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وبها قرأ ابن شنَّبوذ(51)، ولكن إذا أُنعم النظر ودقق في الكلام، تبيّن أن التذييل يجب أن يكون على ما هو عليه في التلاوة، ولا يغني غيره غناءه في سياقه؛ وبيان ذلك كما يأتي:

– لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا مَن ليس فوقه أحد يردّ عليه حكمه وهذا هو العزيز، لأن العزيز من صفات الله تعالى هو الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة، فالبارئ سبحانه أغلب الغالبين، ولا يغلبه غالب، ثم وجب أن يوصف بالحكيم؛ لأن الحكيم مَن يضع الشيء في محلّه، والله تعالى كذلك، إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة في بعض أفعاله، فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة، فكان في الوصف بـ ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾احتراس حسن، أي: وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا مُعَتَرَض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته(52).

– بيّن ابن جزي وابن الزبير والقرطبي وغيرهم مناسبة قوله: (فإنك أنت العزيز الحكيم)، لقوله: (وإن تغفر لهم) وذكروا أن الأليق مع ذكر المغفرة في هذا المقام هو

قوله: (فإنك أنت العزيز الحكيم) وليس: (فإنك أنت الغفور الرحيم)، فليس المقام مقام رحمة ومغفرة، وآية المائدة مبنية على التسليم لله سبحانه وأنه المالك للكل يفعل فيهم ما يشاء فلو ورد هنا عقب آية المائدة: (وإن تغفر لهم فأنت الغفور الرحيم) لكان تعريضا بطلب المغفرة ولأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل، ولم يقصد ذلك بالآية وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام تبريا وتسليما لله سبحانه وليس الموضع موضع طلب مغفرة لهم وإنما هو تنصل من حالهم وتسليم لله فيهم، فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزة تقتضي التعظيم له، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فاقتضى الكلام تفويض عيسى عليه السلام الأمر إلى الله في المغفرة للمشركين من النصارى أو عدم المغفرة لهم؛ لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته وأيهما فعل فهو جميل لحكمته، والكلام لتسليم الأمرين والحكمة تقتضيهما وكأنه قال: فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج عن حكمتك(53).

-إنّ الذي استحق عذاب الله لا يستطيع أن يغفر له إلا صاحب السلطة العليا والقوى العظمى، وإلا مَن كانت عّزته فوق كل عّزة، ومن كان كذلك وجب أن يكون متّصفا بالحكمة التي يساندها المنطق السليم، فهو سبحانه حكيم؛ لأنه عزيز، وعليه فإذا اجتمعت العّزة والحكمة، فحريّ أن تقّدم العزة؛ لأن الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم، لن تكون لها نتائجها وثمارها إلا إن كانت منبتة على العزة والقوة، فكيف يكون حكيما من كان مكتسيا بثوب الذّل والصَّغار، ولذا قدّم وصف ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وإذا جاء التذييل بالعزّة مقترنا بالحكمة؛ فلأن القادر على العقاب عزيز دائما، وليس كل عزيز عادلا، لكنَّ الله عزيز قوي غالب حكيم عادل، ولذا جاء هذا التذييل بـ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقرير لمضمون الآية، فمن يعّذب ويغفر لا بّد أن يكون عزيزا قاهرا، ثم هو حكيم لأنه لا يعذب إلا من استحق العذاب.

إذن فبالتدقيق والتدبر وإنعام النظر والتأمل في المعنى المراد والغَرض المقصود من الآيات، يزول الإشكال عن هذا التذييل المشكل، ليتبين أنه لا يقدر على فعل ما قبل التذييل من المغفرة للمشركين من النصارى أو عدم المغفرة لهم إلا من يمتلك كامل العزة، وعظيم القدرة، والبالغ في استعمالها أقصى الحكمة، فلما كان المراد هذا المعنى كان التذييل بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هو المناسب لختام الآية والأليق للمقام والأنسب لتحقيق مقصود الآية فلا يغني غيره غناءه.

ونظير هذه الآية نجد آيات كثيرة مثلها ، ختمت بتذييل يبدو لأول وهلة ودون تدبّر عدم ملاءمته لما قبله، لكن عند التدبر والتدقيق ترى من السّر في هذا التذييل ما يجعلك توقن بأن هذا الكلام من عند الله تعالى وأن كل لفظة فيه لا يغني غيرها غناءها في سياقها(54).

وأما دلالة التذييل ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ على مقصد سورة المائدة ومقصد القرآن الكريم فتظهر كما يأتي:

مقصد سورة المائدة: الوفاء بالعقود والتزام الشرائع والحدود وإكمال الدين وأن دين الله واحد وإنْ اختلفت شرائع الأنبياء ومناهجهم، وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنها أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام(55).

وهنا تظهر المناسبة جليّة بين دلالة التذييل وبين مقصد السورة، فهو هاد إليه ودالّ عليه، حيث انفردت سورة المائدة ببيان أصول مهمة في الإسلام ومنها: إكمال الدين، وبيان عموم بعثة النبي ﷺ وأوجب الله فيها على المؤمنين إصلاح نفوسهم، وطريق الإصلاح الوفاء بالعقود، وتحريم الاعتداء على الآخرين، والتعاون على البرّ والتقوى وتحريم التعاون على الإثم والعدوان وتحريم موالاة الكفار، ووجوب الشهادة بالعدل، والحكم بالقسط والمساواة بين المسلمين وغيرهم.

وقد جاء التذييل في سياقٍ يتوعد الله تعالى فيه الكفار على إصرارهم على كفرهم

وعنادهم بعد قيام الحجة الواضحة عليهم، وجاء في خطابٍ غَلَبت عليه معاني القوة من خلال دلالات ألفاظه ذات الجرس الصوتي القوي المهددة بالعذاب، فناسب هذا السياق الشديد القوي بألفاظه استعمال التذييل ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الموحي بالقوة والغلبة دون التذييل﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فلا يقدر على فعل ما قبل التذييل وهو إلحاق العذاب بالمشركين من النصارى المعاندين إلا مَن يتّمتع بكامل العزّة وعظيم القدرة والبالغ في استعمالها أقصى الحكمة، فلما كان المراد هذا المعنى كان التذييل بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾هو المناسب لختام الآية، بحيث لا يغني غيرُه غناءَه تذييلا للآية.

وهذا في غاية المناسبة لمقصد سورة المائدة الذي عرضناه آنفا، وكأن التذييل ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أصبح شعارا يرمز إلى دلالات متعددة فهو من جهة رمز للكفار المعاندين، وهو بذلك يمثّل النموذج السلبي للمقصد الذي تركز عليه السورة من الوفاء بالعقود وإتمام العهود الموثقة بين الخلق وخالقهم من الإيمان به سبحانه، والتزام الشرائع والحدود، نموذج الكفار الذين سألوا عيسى المائدة من السماء فاستجاب الله دعاء عيسى ونزّلها عليهم فكفروا، ومَن يدّعي على أنبيائه ما لم يقولوه كما ادّعوا على عيسى بأنه أبلغهم أنه الله أو أنه ابن الله، ومن جهة أخرى فهي رمز وشعار للمؤمنين ليحذروا من التشبّه بالكفار في كفرهم وعنادهم، ويوفوا بعقودهم التي بينهم وبين خالقهم وبينهم وبين الناس والتزام حدوده وشرائعه.

جمعت سورة المائدة المدنيّة من مقاصد القرآن المكي: الدعوة إلى وحدانية الله تعالى بالإضافة إلى مقاصد القرآن المدني من بيان أحكام التشريع، ولم تكتف سورة المائدة بالدعوة إلى تحقيق الإصلاح الفردي بإصلاح الاعتقاد، بل بيّنت أحكام التشريع من الوفاء بالعقود والتزام الشرائع والحدود، وأحاطتها بسياج عقدي بالأمر بتقوى الله تعالى، وبذلك يحقق الصلاح الفردي ورأسه صلاح الاعتقاد.

وبذلك لم يهد التذييل ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إلى مقصد سورة المائدة ويدل عليه فحسب، بل إنه دلّ على مقاصد القرآن العامة من الإصلاح العقدي وبيان أحكام التشريع.

خاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أولا: النتائج

– ليس التذييل القرآني مجّرد توافق ألفاظ وأوزان، بل له قيمته في إتمام معنى الآية وبيانه وتوضيح الصورة، ولذا فهو من الإطناب المحمود، فقد يأتي التذييل القرآني مؤكدا لما قبله من الآية أو مقررا له أو معللا له أو يكون فذلكة وتلخيصا لما قبله، فالتذييل القرآني مرتبط تمام الارتباط بالآية، وله أثره البالغ قدره في نظام الكلام، والتذييل يتناسب مع الجملة السابقة عليه تناسبا راقيا يجعل السابق يمهد للّاحق واللاحق يؤكد على السابق في تناغم واتساق، ولهذا جاء التذييل القرآني مستقرا في مكانه، متمكّنا دلاليا في سياقه، ولو استبدل به غيره لتبدّل المعنى ولما تحقق المعنى المراد من الآية والغرض المقصود منها، ولذلك فلا يغني غيرُه غناءَه في سياقه.

– التذييل القرآني شكّل دلالات رمزية تؤدي بدورها وظيفتين، وظيفة مترجِمة وكاشفة عن مقاصد القرآن وسوره، ووظيفة انفعالية تستثير نفسية السامع وتستحوذ عليه.

– التذييل القرآني على ضربين، ضرب يحتوي على أسماء الله وصفاته مثل (خبير، عليم، حكيم، سميع، توّاب...)، فيأتي التذييل بأسماء الله وصفاته حثا للعباد على مضمون الآية الأساسي الذي جاء هذا التذييل يشير إليه صراحة، وضرب ليس كذلك مثل (إن الإنسان لظلوم كفار، ولكن لا يشعرون...) وغير ذلك مما مرّ معنا مما هو تعليل لما قبله وتأكيد له إلى غير ذلك من أغراض التذييل القرآني.

– غِنى الآيات القرآنية بالتذييل واشتماله على حكم وأسرار تستأهل الدراسة وتغري بالبحث.

– قيمة التذييل البلاغية ودلالته على عظمة القرآن وبيانه، بما لا يدع مجالا للشك عند منصف في كون القرآن كلام الله رب العالمين.

ثانيا: التوصيات

1– مواصلة رَصْد ظاهرة التمكّن الدلالي للتذييل القرآني ودلالته على مقاصد القرآن وسوره.

2–الدعوة إلى تجديد قراءتنا للقرآن الكريم بما يحقق تدبّره وتثويره، وبما يعمل على التصدّي لمشاريع الطاعنين فيه.

ـ قائمة المراجع والمصادر

1. الإسكافي، محمد بن عبد الله الأصبهاني، (1422 هـ –2001م)، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، (ط1)، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (30) معهد البحوث العلمية.
2. البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، (1415هـ –1995م)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرازق غالب المهدي، (د. ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.
3. ابن جزي، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الكلبي الغرناطي، (1416هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل تحقيق: عبد الله الخالدي، (ط1)، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
4. جماعة من علماء التفسير، (1436هـ)، المختصر في تفسير القرآن الكريم، (ط1)، الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية.
5. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن محمد، (1404هـ)، زاد المسير في علم التفسير، (ط1)، بيروت: المكتب الإسلامي.
6. –حامدي، عبد الكريم، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، (ط1)، بيروت: دار ابن حزم.

7. الحسناوي، محمد، (1406هـ-1986م)، الفاصلة في القرآن، (ط2)، بيروت: المكتب الإسلامي– دار عمار.
8. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، (1422هـ-2001م)، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلمية.
9. الخضري، محمد الأمين، (1994م)، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، (د. ط)، د.م: د.ن.
10. الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، (1976م)، بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة: ذخائر العرب (16)، تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول، (ط3)، (مصر: دار المعارف.
11. ابن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، (1423هـ-2002م)، كتاب المصاحف، تحقيق: محمد بن عبده، (ط1)، القاهرة: الفاروق الحديثة.
12. الداوودي، محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين، (د. ت)، طبقات المفسرين، (د. ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.
13. -الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (1404هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح عباس، (ط1)، بيروت: مؤسسة الرسالة.
14. الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، (د. ت)، التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"، (د. ط)، بيروت–لبنان: دار الفكر.
15. -الرماني، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، (1976م)، النكت في إعجاز القرآن، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، (ط3)، مصر: دار المعارف.
16. -زبادي، توفيق بن علي مراد، (1439هـ-2017م)، أفانين السورة القرآنية في الدلالة على مقصدها دراسة تطبيقية على سورة مريم، (عدد 3)، السعودية: مجلة تدبّر.
17. ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، (د. ت)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، (د. ط)، بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية.
18. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (1418هـ)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (ط2)،

دمشق: دار الفكر المعاصر.
19. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، (1415هـ-1994م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرين، (ط2)، بيروت: دار المعرفة.
20. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، (1419هـ -1999م)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلمية.
21. السمين الحلبي، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (1417هـ-1996م)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (ط1)، بيروت: دار الكتب العلمية.
22. السهيلي، عبد الرحمن بن محمد، (د. ت)، نتاج الفكر في النحو، تحقيق: محمد البنا، (د. ط)، الرياض: دار الرياض للنشر والتوزيع.
23. السيوطي، جلال الدين، (د. ت)، الإتقان في علوم القرآن، (د. ط)، بيروت: عالم الكتب.
24. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، (١٩٩٧م)، التحرير والتنوير، (د. ط)، تونس: دار سحنون.
25. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، (1425هـ-2004م)، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (د. ط)، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
26. عباس، فضل حسن وسناء فضل، (1422هـ -2001م)، إعجاز القران الكريم، (ط4)، عمان: دار الفرقان.
27. -الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، (د. ت)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية.
28. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، (1423 هـ-2003 م)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سمير البخاري، (د. ط)، الرياض: دار عالم الكتب.
29. قطب، سيد إبراهيم، (د. ت)، في ظلال القرآن، (د. ط)، القاهرة: دار الشروق.
30. لاشين، عبد الفتاح، (1419هـ-1999م)، البديع في ضوء أساليب القرآن، (ط1)، القاهرة: دار الفكر العربي.

31. المطيري، عبد المحسن بن زبن، (د. ت)، علم مقاصد السور وأثره في تدبر القرآن الكريم، (د. ط)، الكويت: جامعة الكويت.
32. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم، (د. ت)، لسان العرب، (د. ط)، القاهرة: دار المعارف.
33. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، (1416 هـ-1996م)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، (ط1)، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ـ الحواشي والإحالات:

(1) بيان إعجاز القرآن: حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة: ذخائر العرب (16)، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، مصر: دار المعارف، ط3، 1976م، ص27.

(2) ينظر: علم مقاصد السور وأثره في تدبر القرآن الكريم: عبد المحسن بن زبن المطيري، الكويت: جامعة الكويت، د. ط، د. ت، ص54-59. و"أفانين السورة القرآنية في الدلالة على مقصدها دراسة تطبيقية على سورة مريم": توفيق بن علي مراد زبادي، مجلة تدبّر، السعودية، عدد 3، 1439هـ-2017م، ص151-159.

(3) ينظر مادة (ذ ي ل) في: لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور، القاهرة: دار المعارف، د. ط، د. ت، ج11، ص260. والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، بيروت: المكتبة العصرية، د. ط، د. ت، ج1، ص213،

(4) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرين، بيروت: دار المعرفة، ط2، 1415هـ-1994م، ج1، ص150.

(5) المرجع نفسه، ج3، ص68. صُغت هذا التعريف اعتمادا على ما جاء في البرهان للزركشي مع إضافة عليه.

(6) ينظر مادة (عود) في: المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية، ط1، 1412 هـ، ص593. ولسان العرب: ابن منظور، ج3، ص315. وكتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ-2003م، ج2، ص217.

(7) ينظر: معجم مقاييس اللغة: أحمد بن زكريا بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، د. ط، 1420هـ، ج1، ص137. وأصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط1،

1416هـ، ج2، ص829. والوجيز في إيضاح القواعد الفقهية الكلية: محمد صدقي البورنو الغَزِّي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1416هـ، ص274.

(8) أفدت في هذا التعريف مع توظيفه في التذييل القرآني من كتاب: عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية: راشد بن حمود الثنيان، الرياض: دار التدمرية، ط1، 1432هـ-2011م، ص29.

(9) ينظر مادة (قصد) في: معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ج 5، ص95. والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، تحقيق عبد العظيم الشناوي، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1987م، ج 2، ص504.

(10) معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بيروت: عالم الكتب، ط1، 1429 هـ-2008م، ج2، ص1617.

(11) صُغْتُ تعريف مقصد السورة من خلال النظر في عدة مراجع، منها: علم مقاصد السور: محمد بن عبد الله الربيعة، السعودية: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1432هـ، ص7. ودلائل النظام: عبد الحميد الهندي الفراهي، مصر: المطبعة الحميدية، ط1، 1388هـ، ص73.

(12) صُغْتُ تعريف مقاصد القرآن الكريم من خلال النظر في عدة مراجع، منها: مقاصد القرآن من تشريع الأحكام: عبد الكريم حامدي، بيروت: دار ابن حزم، ط1، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص29. والتحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور، تونس: دار سحنون، د. ط، ١٩٩٧م، ج1، ص38.

(13) ينظر مادة (مكن) في: المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، القاهرة: مجمع اللغة العربية-مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004م، ج2، ص882.

(14) الاتّساق: بمعنى الضمّ والجمع والانتظام والانسجام، ينظر مادة (وسق) في: لسان العرب: ابن منظور، ج10، ص397.

(15) ينظر: "التمكن الدلالي للألفاظ الواردة مرة واحدة في القرآن الكريم": محمد عبد الزهرة غافل، شكيب غازي، مجلة اللغة العربية وآدابها، العراق، ع15، 1433هـ-2012م، ص198.

(16) دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، القاهرة: مطبعة المدني -جدة: دار المدني، ط3، 1413هـ-1992م، ص45.

(17) ينظر مادة (طنب) في: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1407ه -1987م، ج1، ص172.

(18) ينظر مادة (طنب) في: معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ج3، ص426.

(19) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: محمد بن سعد الدين بن عمر الخطيب القزويني، بيروت: دار إحياء العلوم، ط4، 1998م، ص179، والمعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، ج2، ص567.

(20) ينظر: الفاصلة في القرآن: محمد الحسناوي، بيروت: المكتب الإسلامي– دار عمار، ط2 ،1406هـ-1986م، ص314-315.

(21) ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج1، ص78. والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، بيروت: عالم الكتب، د. ط، د. ت، ج1، ص351.

(22) ينظر: المرجع السابق الأول، ج1، ص94. والمرجع السابق الثاني، ج3، ص354.

(23) ينظر: المرجع السابق الأول، ج1، ص95. والمرجع السابق الثاني، ج3، ص355.

(24) ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن: عبد الفتاح لاشين، القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1419هـ-1999م، ص143. والنكت في إعجاز القرآن: علي بن عيسى بن علي الرماني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط3، 1976م، ص97.

(25) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل: محمد بن عبد الله الأصبهاني الإسكافي، تحقيق: محمد آيدين، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط1، 2001م، ص1295. والإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج3، 349. ومثل هذا الكلام وقريب منه قال المفسرون، انظر مثلا: والتفسير الكبير "مفاتيح الغيب": فخر الدين بن ضياء الدين عمر الرازي، بيروت–لبنان: دار الفكر، د. ط، د. ت، ج16، ص8. وإرشاد العقل السليم: محمد العمادي أبو السعود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999م، ج6، ص374. التحرير والتنوير: ابن عاشور، ج29، 145.

(26) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: جماعة من علماء التفسير، الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط3، 1436هـ، ص566. والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دمشق: دار الفكر المعاصر، 1418هـ، ط2، ج29، ص80. والتحرير والتنوير: ابن عاشور، ج29، 111.

(27) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: الإسكافي، ص411. وانظر تفسير الآيات في: التفسير الكبير: الرازي، ج5، ص401. والتحرير والتنوير: ابن عاشور، ج4، 84.

(28) ينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ-1996م، ج1، ص485.

(29) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: الإسكافي، ص411-413.

(30) ينظر: إعجاز القران الكريم: فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، عمان: دار الفرقان، ط4، 1422هـ - 2001م، ص213.

(31) ينظر: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية: محمد الأمين الخضري، د. م، د. ن، د. ط، 1414هـ-1994م، ص50-51.

(32) نتاج الفكر في النحو: عبد الرحمن بن محمد السهيلي، تحقيق: محمد البنا، الرياض: دار الرياض، ص271.

(33) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: جماعة من علماء التفسير، ص77. والتفسير المنير: والزحيلي، ج4، ص221. والتحرير والتنوير: ابن عاشور، ج4، ص213.

(34) ينظر: التفسير المنير: الزحيلي، ج5، ص293.

(35) ينظر مقاصد القرآن العامة: التحرير والتنوير: ابن عاشور، 1/38-41.

(36) هو أحمد بن محمد بن منصور، المعروف بناصر الدين ابن المنيّر الجذاميّ الإسكندرانيّ المالكيّ، كان إماما بارعا في الفقه، وله اليد الطولى في علم النظر والبلاغة والإنشاء وعلم التفسير والقراءات، وكان علّامة الإسكندرية، توفي سنة (683هـ). ينظر: طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت، ج1، ص89. ويوجد جزء من هذا التفسير بدار الكتب المصرية بالقاهرة (832-833 تفسير). واعترض عليه أصحابه في هذه التسمية بأن البحر الكبير مالح، إلا أنه أجابهم بأن البحر محل العجائب والدرر. ينظر: طبقات المفسرين: الداوودي، ج1، ص91.

(37) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص86.

(38) ينظر المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(39) ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج5، ص349.

(40) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن البقاعي، تحقيق: عبد الرازق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، 1415هـ -1995م، ج4، ص189.

(41) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: جماعة من علماء التفسير، ص255. والتفسير المنير: والزحيلي، ج13، ص198.

(42) المرجعان السابقان: الأول منهما، ص267، والآخر، ج14، 80-81.

(43) ينظر مقاصد القرآن العامة في: التحرير والتنوير: ابن عاشور، 1/38-39.

(44) ينظر: التفسير المنير: الزحيلي، ج18، ص292. وفي ظلال القرآن: سيد إبراهيم قطب، القاهرة: دار الشروق، د. ط، د. ت، ج4، ص2532. والتحرير والتنوير: وابن عاشور، ج18، ص292.

(45) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، ج5، ص73.

(46) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: جماعة من علماء التفسير، ص350. والتفسير المنير: الزحيلي، ج18، ص141.

(47) ينظر: التفسير المنير: الزحيلي، ج18، ص119.

(48) ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية: محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور التونسي، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ط، 1425هـ-2004م، ج3، ص194. ومقاصد القرآن من تشريع الأحكام: عبد الكريم حامدي، بيروت: دار ابن حزم، ط1، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص29.

(49) ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج1، ص79. الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج2، ص270.

(50) قال النيسابوري في غرائب القرآن: "وفي مصحف عبد الله بن مسعود: چفإنك أنت الغفور الرحيمچ وضعّفه العلماء؛ لأن ذلك يشعر بكونه شفيعا لهم لا على تفويض الأمر بالكلية إلى حكمه تعالى، والمقام هذا لا ذاك"، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: الحسن بن محمد القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1416 هـ-1996م، ج3، ص41. ولم يذكر ابن أبي داود في كتابه "المصاحف" هذه القراءة. ينظر: كتاب المصاحف: عبد الله بن سليمان ابن أبي داود، تحقيق: محمد بن عبده، القاهرة: الفاروق الحديثة، ط1، 1423هـ-2002م، ص176.

(51) هو محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ البغدادي، شيخ الإقراء بالعراق مع ابن مجاهد، وكان ثقة في نفسه صالحا دينا متبحّرا في هذا الشأن، توفي ابن شنبوذ سنة (328هـ)، انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1404هـ، ج1، ص276-277.

(52) ينظر: البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج1، ص89. وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، ج3، ص67.

(53) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: محمد بن أحمد الكلبي الغرناطي ابن جزي، تحقيق: عبد الله الخالدي، (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1416هـ)، ج1، ص252. وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي ابن الزبير، وضع حواشيه: عبد الغني الفاسي، بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت، ج1، ص138. والجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب، 1423 هـ-2003 م، ج6، ص378.

(54) ينظر مثلا قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ (غافر: ٨)، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

(55) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: جماعة من علماء التفسير، ص106. والتفسير المنير: الزحيلي، ج6، ص62. التحرير والتنوير: ابن عاشور، ج6، ص72.

Stylistic habits of the Quran in redundancy The appendix in verses the Quran as model

Dr. Mahmoud Ali Othman Othman
Department of Quranic Studies, Faculty of Education
King Faisal University
mahmoudaliothman726@gmail.com

Abstract:

The purpose of this research is to study the habits of the Quran, which reflect its rhetoric miracles in its style, which is the redundancy through the appendix in the Quranic verses, the research reveals the phenomenon of its semantic mastery in its context, the proportion of its parts and the cohesion of its structure, to achieve this aim, the researcher took the inductive, deductive and descriptive method to draw the Quranic appendix and categorize it into four cases, and then to deduce his rhetorical secrets and manifestations of his semantic mastery in his context and his role in uncovering the purposes of the Qur'an and its context.

The study concludes that the Qur'anic appendix is closely linked to the verse and is consistent with the previous sentence, it is a fine fit, which makes the former pave the way for the right and the future, emphasizing the former in harmony and consistency, to come out of this is a Qur'anic theory, namely the semantic mastery to appendix the Quran to its context, the relationship between the successive structures of the entire context according to: the relevance of the statement of the appendix to its context and the context of the general surah, which called and the purpose of the Surah and the purposes of the Quran General, and these relations combined enabled in the context, so as to lead the meaning accurately and is not suitable for other synonyms to come in place, the study also showed that the appendix Quranic form semantics symbolic lead in turn two, the function of translated and revealing for the purposes of the Quran and surah, one emotional evoke psychological hearer attracted, and recommended the study continue to monitor the phenomenon of semantic mastery of appendix Quranic.

Keywords:

Redundancy; the appendix in verses the Quran; The semantic mastery; the habits of the Quran; and the purposes of the Qur'an and its Surah's.